المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة التخصصات
العدد الثامن والستون شهر (2) 2024

عنوان البحث: فلسفة الموت عند طرفة بن العبد

محمد باسل طربوش

مدرس لغة العربية

مؤسسة الإمارات للتعليم المدرسي- الإمارات العربية المتحدة- أبو ظبي

ملخص البحث:

الموت حقيقة مرة وهو مصير محتوم لكل المخلوقات فنظر كل واحد منهم إليه نظرة مختلفة كشاعرنا طرفة.

فالموت الذي ما انفك يشغل البشرية جمعاء منذ خلقها الأول، وتحديداً منذ قتل قابيل أخاه هابيل ثم حمله على كتفه وهو لا يدري ماذا يصنع حتى اهتدى إلى دفنه.. فهذا طرفة بن العبد الذي كان ومازال يشغل أذهان النقاد والدارسين بحياته الحافلة وموته السريع وأفكاره المختلفة عن أفكار معاصريه

والشاعر الجاهلي باعتباره إنساناً ابن بيئته كان يتجاذبه عاملان قويان: عامل الفناء، وعامل البقاء، وكان هذان الأمران يشغلان باله بصورة حادة.

فعامل الفناء يجعله يخاف ويضطرب ويحس بالموت يسد عليه منافذ الطريق ويحيط به في كل مسلك، ولكنه برغم ذلك كله كان يحس بعامل البقاء يملأ أقطار نفسه، فيقاوم الخوف ولو إلى حين، ويسعد ولو إلى فترة ينسى فيها ما يجد من الخوف والتبريح.

وكان عامل الفناء يلح عليه أكثر من عامل البقاء، وكان يتمثله في كل ما يحيط به في كل مظاهر الحياة تقريباً فتناوله شاعرنا بالتفكير والتشبيه لا بالغريزة.

الكلمات الدالة: الموت- الشاعر الجاهلي -عامل البقاء- عامل الفناء

المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة التخصصات
العدد الثامن والستون شهر (2) 2024

The philosophy of death at Tarfa bin Al-Abd

M BASEL TARBOSH

ARABIC TEACHER

UAE- Abu Dhabi

Abstract:

Mankind have looked to Death differently. The poet Tarfa, has his own unique way of that. Death is defined as bitter reality, and it is an inevitable fate for all creatures.

Since Cain murdered his brother Abel and carried him on his shoulder till finding the way for burrying, Death is considered to occupy the entire human's mind all the time.

All critics and scholars are impressed and dazed about the poet Tarfa Bin Al Abd, with his short life period versus achivements and compared with different ideas of his contemporaries.

Taking in consideration the fact that pre-Islamic poet, based on living environments, was attracted by two powerful factors: annihilation and survival

The factor of annihilation causes the poet to feel the fear and turmoil in all living aspects. Moreover, it disturbs and obstructs the poet's life in all meanings.

On the other hand, and despite all of annihilation causes, at the same moment, the poet feels the factor of survival recovering and refreshing his soul .

The poet's life is going back and forth by resisting the fear for a while, and recovering for a time period to forgot what he found of risk.

The poet Tarfa had dealt with this topic closly to the factor of annihilation more than survival factor, adding his thoughts, views and analogy not his instinct.

Key words:

Death - the pre-Islamic poet - the factor of survival - the factor of annihilation

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رافع السماوات بلا عمد، وسبحانه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد منذ الأزل وإلى الأبد، والصلاة والسلام على من اصطفى لنفسه وأعد، ولم يجعل بعده نبياً من أحد أما بعد:

بين أيدينا دراسة عنوانها: (فلسفة الموت عند طرفة بن العبد البكري)، وكأية دراسة أخرى لم يكن وقوع اختياري عليها عبثاً، بل كانت حصيلة تفكير سابق؛ ذلك أن في الاختيار مسؤولية كبيرة، تقتضي من الباحثين والدارسين اليوم أن يكونوا في غاية العناية والتركيز، وأخص منهم أولئك الذين يضطلعون بدراسة الأدب الجاهلي؛ لأن هذا الأدب بالذات أبعد ما وصلنا من التراث الأدبي العربي برمته عنا زمناً وبالتالي لم يعد التوثيق فيه ممكناً إلا من خلال ما نقله الرواة في عصر التدوين.. على أن لدى الباحث المعاصر هامشاً من التحري يعتمد على تتف الأخبار المتفرقة بين الكتب من هنا وهناك، للخروج بنواة جديدة لدراسته، لأن دراسة النص الأدبي تكون لاحقة لما وصل إلينا من الرواة " ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غفلاً لم يدرس ولم يفحص " (ضيف، تاريخ الأدب العربي، ١٩٦٠، صفحة ١٦٢)

ولعنوان الدراسة عنصران أساسيان؛ أولهما الموت الذي ما انفك يشغل البشرية جمعاء منذ خلقها الأول، وتحديداً منذ قتل قابيل أخاه هابيل ثم حمله على كتفه وهو لا يدري ماذا يصنع حتى اهتدى إلى دفنه.. وأما ثاني العنصرين فهو طرفة بن العبد الذي كان ومازال يشغل أذهان النقاد والدارسين بحياته الحافلة وموته السريع وأفكاره المختلفة عن أفكار معاصريه.

وكان عليّ بعد انتقاء محور الدراسة أن أقرأ للشاعر وعنه، وأجمع المادة المطلوبة، فانصبَّ معظم جهدي على ديوان الشاعر آخذ منه ما يتصل بالموت، ثم بدأت الدراسة قدماً ، وفي مرحلة تالية بدأتُ أستقصي ما قاله الدارسون السابقون عنه ، وأقاطع ما توصلوا إليه مع ما توصلت بدوري إليه ، وكان رائدي في هذه المرحلة من الدراسة : الحيادية والأمانة العلمية ، وفي حال كنت ألمح خلافاً بين الآراء في مسألة من المسائل كنت أحتكم إلى العقل جاعلاً مصلحة البحث أول اهتماماتي وكنت أقدم الرأي الأكثر إقناعاً على بقية الآراء حتى وإن خالف رأيي ، أو رأي دارس كبير ، وهذا لا يعني أبداً أني أجحده فضله ، وإن خالفت أحدهم الرأي كنت أبيّن السبب أو الأسباب لذلك ، تاركاً للقارئ فرصة استعراض كلتا القناعتين معاً وقد استفدت من معطيات علم النفس ، والمنهج النفسي في النقد (الصبور، ١٩٧٣، الصفحات ٢٥-٢٦)؛لأنني رأيت التفسير النفسي لكثير من الظواهر في الدراسة أكثر إقناعاً ، لكنني لم أشأ في الوقت نفسه أن أفصل الحديث في النظريات النفسية ، فقد أخذ الدكتور سعد الدين كليب على العالم سيجموند فرويد (كليب، ٢٠١١، الصفحات ١٠٣-١٠٧) أنه سعى إلى تطبيق نظريته على بعض الأعمال الأدبية، ولكنه بقي في إطار علم النفس ، ولم يقترب كثيراً من النقد الأدبي

؛ وذلك أنه لم يحاول - برأيه - وعي العمل الأدبي إنما سعى إلى استنباط نظريته من الأدب ، كما سعى إلى إثبات نظريته من خلال اختبارها في الأدب لذلك عمدت إلى البقاء في عالم النص الأدبي على المستوى التطبيقي ، وأشرت في الحواشي إلى النظريات النفسية التي يمكن الرجوع إليها في حال رغبة القارئ بالتوسع فيها .

إن التكرار من العيوب التي تهبط بالدراسات على اختلاف أنواعها ، وتسرع بالمتلق إلى السّأم ، وتفوت على الدارس سلاسة الوصول إلى مقولة العمل ؛ لذلك انصب قسط وافر من الجهد في تجنب التكرار ما أمكن ، وتوزيع الأفكار في أبوابها بطريقة صحيحة ، والحق أن هذه المسألة في غاية الصعوبة وهذا ما لا يدركه القارئ بعد تمام العمل ، ولعله يرى أن شكلاً آخر للتقسيم يكون أكثر منطقية أو أكثر فائدة لمادة الدراسة ، وهذا من طبيعة الحياة ، فالاختلاف لا يعني الخلاف ، ولا أدعي لنفسي الكمال ، على أن هذه القضية لا نهاية لها، والعالم الواسع يتسع لجميع الآراء معاً ، لذلك أتوقع سماع الكثير من الملاحظات وأرحب بها طالما أنها تفيد الرقي بالعمل.

ولعل حداثة العهد بالبحث الأدبي وطرقه الأكاديمية تفرض في بعض الأحيان، أو في كثير من الأحيان، أن يقع أحدنا في إشكاليات كثيرة منها الغلو في التوصل إلى بعض النتائج، أو التعميم، أو عدم إشباع إحدى الأفكار.. إلخ.

حول فكرة الموت في العصر الجاهلي:

لقد شغل الموت الكثير من عقول الشعراء الجاهليين، فهو ذلك اللغز المحير الذي لم يكونوا قادرين على استيعابه كما هو، وكان كل شاعر ينظر إليه تبعاً لحالته النفسية والاجتماعية في القبيلة، وتبعاً لوعيه وسنه ومعرفته وتجربته في الحياة.

إن نقلنا للمحة من تصورات الجاهليين حول الموت ليس بغرض الإحاطة بفكرة الموت في الشعر الجاهلي برمته مما لا حاجة لنا به في هذا المقام، وإنما لإبراز ما تميز به طرفة في نظرته إليه من غيره من معاصريه مما سيتبع الحديث فيه

" لعل أبسط شكل من أشكال التصوّر طاف في ذهن الشاعر العربي، وهو يفكر في الموت تصوره أن الموت سفر ذو اتجاه واحد، بدايته معروفة، ونهايته مجهولة. إنه سفر الروح إلى عالم غامض، وبقاؤها في مستقرها البعيد عن الجسد، وعن الأحياء. قال عبيد بن الأبرص:

وكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ (طليمات و الأشقر ، ١٩٩٢)

إن في هذا البيت من البساطة ما يمكننا من أن نعتبره ومضة شعورية لا أكثر، ولا أثر فيها للتفكير.. سوى على مستوى التعميم، وفي كل الأحوال "..يظل الموت فراقاً لا لقاء بعده، ولهذا يشعر الإنسان بالغربة الأبدية، ويشعر أهله بهذه الغربة أيضاً، إن تجربة الموت إذاً قاسية على الميت وذويه لهذا الفراق الأبدي، ولأنهم يحسون بأنهم لاحقون به أجلاً أم عاجلاً.

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أي زير

بيوم الشعثمين لقر عيناً وكيف إياب من تحت القبور (الخشروم، ١٩٨٢، صفحة ٣٠٠)

لقد رجا المهلهل أن يقوم كليب من قبره ليرى كيف يثار له لكنه عاد وراجع نفسه يائساً من عودة من مات ودفن تحت التراب، وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نعد هذا الشعر أيضاً أعمق فكرة مما قاله عبيد. إنها إذا مسألة إحساس بالموت.. وذلك " الإحساس بالموت يتصاعد ويبلغ درجة كبيرة من التوتر لدى الإنسان الجاهلي ومن اللافت للنظر أن الموت الذي أكثر الشعر الجاهلي من تصويره ليس الموت بسبب الهرم والمرض، بل الموت الذي يصرع الإنسان وهو في أوج قوته وشبابه يصرعه لا لأنه ارتكب إثماً ما بحق الآلهة، كما هي الحال في الشعر الملحمي اليوناني، وإنما لأن ذلك منطق الحياة التي كان البدوي الجاهلي يحياها " (المرعي، ١٩٨٩، صفحة ٤٦)

" ولا شك أن الموت قد أثار الشاعر العربي الأول، أو الشعراء العرب الأوائل وكان أكبر ما أثارهم فيه هو بغتته وفجأته. فهو يقدُم بينما الحياة تجري في عنفوانها وشموخها " (المرعي، ١٩٨٩، صفحة ٤٦)

لقد ألغى بعض الدارسين التفاوت فيما قاله الجاهليون في الموت على مستوى التفكير والفن، فمنهم من قال:

"إذا كانت البداوة قد فرضت على الحياة في العصر الجاهلي سفراً موصولاً بسفر، ورحلة تُفضي إلى أخرى فإن الرحلة الأخيرة لا سواها كانت تستوقف العقل وتحرضه على التأمل، وتُفضي به إلى الاستسلام، لأن الوقوف الطويل على باب الموت لم يمكن أحداً من رؤية ما وراءه. ففيم الإلحاح؟ والصد هو الردّ، وفيم المجادلة، والدارة مغلقة؟ والإغلاق ينتهي إلى الإخفاق؟ " (طليمات و الأشقر ، ١٩٩٢) ثم نصل لقولهم: ... ولنا أن نستنبط من هذا التصور أن حكمة الجاهليين لم تستوعب ما سبقها من فلسفات وعقائد وأديان. فالخلود - كما يرى سيد عويس - كان واضحاً في عقار المصريين القدماء، ولذلك حرص الفراعنة على تحنيط الأجساد لتعود إليها الروح يوم القيامة. والقيامة بعد الموت ركن من أركان العقيدة المسيحية [لأن النفس الخالدة يوم لا يمكن أن يتسلط عليها فناء].

"وتصور الفناء والخلود لا يعنينا لذاته، وإنما يعنينا منه تأثيره في سلوك الإنسان الجاهلي، وما يستتبع من تصور للخير والشر، وما يرافقه من إقباله على الشهوات أو انصرافه عنها. " (طليمات و الأشقر ، ١٩٩٢) ولكن هل يكون ردّ الفعل واحداً لدى جميع الشعراء؟! وهل التصور السابق هو الوحيد المسؤول عن ذلك؟

إن هذا الاستنتاج يقود بالتأكيد إلى تفسيرهم التالي لوجود شعراء كطرفة: " إن العصر الجاهلي شهد تياراً آخر من الحكمة ينظر إلى الدنيا بمنظار الحياة لا بمنظار الموت ، ويناقش لذاتها بالغريزة لا بالعقل ، ويستنبط حكمها من التجربة الحية لا من التصور المتماوت ، وزعيم هذا التيار طرفة بن العبد ، ومن أربابه الأعشى وامرؤ القيس " (طليمات و

الأشقر ، ١٩٩٢) وسنأتي لاحقا على الأدلة بأن نظرة طرفة إلى الموت لم تكن تحتكم إلى الغريزة على الإطلاق بل إلى التفكير الدقيق الشبيه بالفلسفة، وبمتابعة دارسين آخرين للفكرة ذاتها نجد تفسيراً آخر يعتمد علم النفس الفرويدي ، حيث يعزو الدارس هذا الإحساس بالموت إلى الغريزة ، يقول : " والشاعر في هذه الصحراء باعتباره إنساناً كان يتجاذبه عاملان قويان: عامل الفناء ، وعامل البقاء ، وكان هذان الأمران يشغلان باله بصورة حادة (ظلام ، ١٩٩٢).

فعامل الفناء يجعله يخاف ويضطرب ويحس بالموت يسد عليه منافذ الطريق ويحيط به في كل مسلك، ولكنه برغم ذلك كله كان يحس بعامل البقاء يملأ أقطار نفسه، فيقاوم الخوف ولو إلى حين، ويسعد ولو إلى فترة ينسى فيها ما يجد من الخوف والتبريح.

وكان عامل الفناء يلح عليه أكثر من عامل البقاء، وكان يتمثله في كل ما يحيط به في كل مظاهر الحياة تقريباً "

ونحن لا نعترض مطلقاً على التفسير النفسي من حيث المنهج، ولكن من حقنا أن نتساءل:

هل عاش جميع الشعراء الجاهليين حياة البداوة والصحراء؟

لقد كان منهم من خبر حياة الحضر أكثر من حياة البدو، ومنهم من شهد كلا النمطين للحياة (البداوة والحضارة)، والكثير منهم وفد على الملوك في قصورهم، وإن لم يكن الشاعر ممن عرفوا الحواضر، فهو ابن الصحراء الذي يعرفها تماماً ويتميز بقدرات مذهلة على التقفي ومعرفة الاتجاهات وتحمل الحرارة والجوع والظمأ، ولذلك فالصحراء بالنسبة إليه غير موحشة، أو على الأقل ليست كما هي بالنسبة إلى الحضر.. لكن صورة الشاعر البدوي حافي القدمين، ومشقوق إحدى الشفتين وداكن البشرة.. أخذت طريقها إلى أذهان معظم دارسي الشعر الجاهلي ، وعلى مدى أجيال ، مما قد يكون للمستشرقين دور بارز فيه إن من الدقة بمكان أن نتعامل مع الموت لدى الشعراء الجاهليين على أنه حالة إنسانية ، ومن الطبيعي بعد ذلك أن تنبع مفردات كل شاعر ، في تحويل المجرد إلى حسي ، من بيئته وثقافته وموهبته ، وأداتنا في ذلك النصوص التي نظمها أولئك الشعراء ، فقد تتغير عندئذ تلك النظرة ، التي تتهمهم بالسذاجة، إلى بعضهم على الأقل ؛ وبما أن طرفة محور دراستنا فلنقارن أحد أشكال وصفه للموت بما قاله عبيد وزهير : يقول طرفة في معلقته:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقدِ

ولعل البيتين السابقين من أكثر الأبيات دلالة على ماهية الموت في نظر طرفة، فهو لا يصوره كما فعل عبيد بن الأبرص بقوله: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ٦٦)

وكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وغائبُ المَوتِ لا يَؤُوبُ

ولا يقول كما قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يُعمَّرْ فيهرم

إن الموت عند عبيد سفرٌ بلا عودة، وهذا معروف، وعند زهير رمية من غير رام، فهي عشوائية، وهذا خطأ جسيم بالنسبة إلينا اليوم، ولكنه كان مقبولاً جداً في عصره بدليل أنه لقب بـ (شاعر الحكمة)، على أن طرفة بن العبد أدرك رغم أنه لم يهرم (كزهير) أن الموت ليس عشوائياً ، بل هو حكم قصدي تكمن وراءه طاقة هائلة مسيطرة ، فهو يلج عالما ميتافيزيقاً لا يدرك ملامحه لكنه يشعر بوجوده ، والملاحظ أن طرفة لا يعبأ بموت الكبار الطاعنين في السن ، بل بموت الفتيان في مثل سنه من خلال قوله : " ما أخطأ الفتى .." لتأتي صورته في حالة مذهلة من النضج الفني عندما يصور أن الموت يرخي الحبل لمن لا يريد قبضه حتى إذا آن موعده لم يسع إليه، بل يكتفي بسحب الحبل لينهي مشوار حياته، وهنا تتحول الحياة من إرادة لدى الإنسان أو ضربة حظ لا أكثر، إلى فرصة يمنحها إياه الموت لا ترتبط بمقدراته، وإنما بتقديرات تلك الطاقة الخفية التي لا يعلمها لكنه يشعر بأنها تحيط به من كل جانب...

إن الحالات الثلاث السابقة لوصف الموت، تناولته - بتقديري - بالتفكير والتشبيه لا بالغريزة، وقد تدرجت في النضج بدءاً من قول عبيد بن الأبرص إلى قول زهير ابن أبي سلمى وصولاً إلى وصف طرفة بن العبد الذي كان أعمقها دلالة وأدلها على حقيقة الموت ولن أخوض في سيرة طرفة الكاملة حتى لا يطول البحث فسيرته تحتاج إلى مجلدات واقتصرت فقط على ترجمة بسيطة وكذلك مفهوم الموت عنده.

ترجمة طرفة:

هو عمرو بن العبد (الجمحي، ١٩٥٢) من بني بكر بن وائل، وبكر من ربيعة، فهو شاعر ربعي، وينتهي نسبه إلى عدنان. وطرفة لقب غلب عليه (السيوطي، ١٩٩٨)، وعرف بالغلام القتيل وابن العشرين؛ لأنه مات صغير السن (السيوطي، ١٩٩٨)، وأمه وردة بنت عبد المسيح من ربيعة (الميداني، ١٩٦٤)، وهي أخت جرير المعروف بالمتلمس الشاعر المشهور، وكان له أخ لأبيه يدعى معبداً، وأخت لأمه أو لأبيه تسمى الخرنق. وهو من بيت شعر، فخاله المتلمس شاعر (الأصفهاني، ٢٠٠٢، صفحة ٢١٩/٢٤)، ومن عمومته شعراء منهم المرقش الأكبر، والمرقش الأصغر، وعمرو بن قميئة صاحب امرئ القيس في رحلته إلى قيصر الروم.

وكان هو وقومه يعيشون في البحرين على الخليج العربي، وروي أن أباه مات وهو صغير؛ فظلمه أعمامه، واغتصبوا حقا لأمه، وأبوا أن يقسموا ماله؛ فهجاهم.

وعاش عيشة لهوٍ ينفق ماله في الخمر واللَّذات، ويدعو ندماءه إلى الشراب وسماع الغناء، فنقمت عليه العشيرة ذلك، وتحامته، فقال:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وساءت نظرته إلى قومه ، وصلته بهم ، فتركهم ، وأخذ يتنقل في البلاد مع طبقة من الفتيان ، ويقضي حياته بالغزو واللهو ، ثم ندم على ما فرط ، فعاد إلى قومه صفر اليدين ، فحمله أخوه على رعاية الإبل فأهملها ، فأنبه وشك في أن يردّ الإبل بشعره إن أخذت منه ، فأكد طرفة أنه قادر على ردها بشعره ، فلما أخذت منه لجأ إلى ابن عمه مالك ليعينه في طلبها ، فلامه على تضييعها ، فتألم طرفة ، ونظم أبياتاً من معلقته يصف موقف ابن عمه منه ، وجور أقاربه عليه ، وعرض لسيدين من قومه امتازا بكثرة المال والولد ، فمدحهما ، ودعاه أحدهما وهو عمرو بن مرثد ، فأمر أولاده السبعة وثلاثة من بني أولاده أن يعطيه كل منهم عشرة من الإبل .

وظل ينفق من ماله حتى نفَد، فقصد إلى ملك الحيرة عمرو بن هند الذي تبوأ الملك سنة 554 م، فقربه منه لإعجابه بشعره؛ وكان الشعراء يقصدونه، ويمدحونه فيعطيهم، وكان صهره عبد عمرو بن بشر، وخاله المتلمس من حاشية الملك وقيل إنه شبب بأخت الملك ، فأبعده عن حاشيته، وجعله في حاشية أخيه قابوس ، فلم يجد عنده ما تعود من إكرام ، فهجاه وأخاه هجاء مراً . وقيل إن أخت طرفة شكت إليه شيئاً من أمر زوجها عبد عمرو، فهجاه بأبيات منها:

ولا خير فيه غير أن له غنى وإن له كشحاً، إذا قام، أهضما

واتفق أن خرج عمرو بن هند للصيد ، ومعه عبد عمرو ، فكشف كل لصاحبه أمر الهجاء ، فحقد الملك على طرفة (الميداني، ١٩٦٤)، وأضمر له الشر ، وكره أن يعجل عليه خوفاً من هجاء المتلمس ، ولبث يتحين الفرص حتى وفد عليه الاثنان ، فآنسهما حتى اطمأنا إليه ، وأوهمهما أنه سيكافئهما ، ووجههما إلى عامله في البحرين ، ومعهما كتابان (الأصفهاني، ٢٠٠٢، الصفحات ٢٢٩/٢٤-٢٣٠٢٣١) ليأخذا الجائزة ، فلما كانا في طريقهما تذكر المتلمس هجاء الملك ، واستراب الكتاب ، فعرضه على من يقرؤه له ، فلما علم بما فيه من أمر القتل طلب النجاة لنفسه ، ونصح طرفة أن يقرأ ما في كتابه ، فأبى ، وتابع طريقه إلى العامل في البحرين ، فامتنع عن قتله ، لأنه كان من أقاربه ، فأرسل رجلاً من بكر قتل العامل السابق وطرفة.

وقيل إن طرفة وفد مع خاله على الملك فأحسن وفادتهما وجعلهما في صحبة أخيه قابوس، وكان هذا شاباً يميل إلى اللهو والصيد، فكان طرفة يخرج معه إذا خرج وينادمه إذا شرب، ولكنه ملّ أن يخرج معه للصيد تابعاً، ويقف ببابه حتى يؤذن له، فهجاه كما هجا أخاه، وبلغ هذا عمرواً، فأسره في نفسه، ثم بعثه مع خاله المتلمس إلى عامله بالبحرين، ومعهما كتابان بالقتل؛ فنجا المتلمس بنفسه، وسعى طرفة إلى حتفه.

حوادث القصة ظاهرة الوضع، فطرفة يهجو عمرو بن هند وأخاه، والملك لا يقتص منه خشية هجاء المتلمس له، ويوجهه بكتاب إلى عامله بالبحرين، ولا يقتله في الحيرة حاضرة ملكه، والمتلمس يستريب في الكتاب، فينجو بنفسه من دون طرفة، والعامل لا يقتل طرفة لأنه من أقاربه، والعامل الثاني من بني تغلب أعداء البكريين، وبكر تقعد عن إنقاذ شاعرها وفتاها في موطنها.. "

أشهر قصائده القصيدة المعلقة التي يقول في مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة تهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون: لا تهلك أسى وتجلد

والبيت الثاني يذكرنا قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون: لا تهلك أسى وتجمل

والقولان متشابهان إلا في كون امرئ القيس يتجمل، وطرفة يتجلد، وتشابههما يدعو إلى الشك في قول طرفة (الأشتر، ١٩٩٤)، وأغلب الظن أنه لم يعشق هذه الفتاة حقاً.

"فالشاعر يصف خولة وصفاً مادياً من غير أن يعبّر عن أساه لفراقها، وقد كان من الجائز أن نعلل برود عاطفته بأنه يميل إلى الوصف المادي، ويمهد بالوصف لموضوعه، غير أن القسم الأخير الذي يصور فيه نفسه، ويشرح حاله، ويعرض نظرته إلى الحياة، يجعلنا ننتظر أن نسمع له غزلاً رقيقاً دافئاً" (الأشتر، ١٩٩٤).

وقد رفعه الكثير من النقاد القدماء مكاناً عالياً بين شعراء عصره، بل شعراء العرب جميعاً رغم أنه مات شاباً، وقد رأيت كذلك أن أورد بعض ما قاله المستشرقون عن طرفة؛ ونبدأ مع بروكلمان الذي يقول (بروكلمان، ١٩٧٧، صفحة ٩٢):" طرفة بن عمرو بن العبد البكري. وكان ابن أخي المرقش الأصغر. وقضى طرفة شطراً من حياته في بلاط عمرو بن هند، الذي ملك الحيرة حتى سنة568 ، أو 956م، وكان ينادم أخاه أبا قابوس.

ورويت في وفاة طرفة قصص كثيرة مختلفة الروايات. ويذكر الأعلم الشنتمري أن طرفة حينما قدم على والي البحرين، ومعه الكتاب الذي أمره فيه الملك بقتل طرفة، نصحه الوالي وكان قريباً له بالهرب، فأبت على طرفة عزة نفسه أن يهرب، واضطر الوالي إلى التنازل عن ولايته؛ فنفذ القتل في طرفة والٍ آخر ولاه الملك من بعده. ولكن يبدو أن طرفة لم ينادم أبا قابوس في الحيرة، وإنما نادم أخ الملك من أبيه، وهو عمرو بن مامة في اليمامة وكان التجأ إلى قبيلة مراد من عداوة أخيه، فعاقب الملك طرفة بأخذ إيله التي تركها في تبالة من ديار بني لخم؛ فهجاه طرفة بأشعار مقذعة.

وهناك أيضاً بلاشير الذي تحدث عن طرفة قائلاً: (بلاشير، ١٩٨٤، الصفحات ٣٢٧-٣٢٨)

" .. إن حكاية موت طرفة تكييف لموضوع (صحيفة المتلمس) ولما كان طرفة أقل دراية وحذراً من المتلمس، فقد تابع سفره إلى البحرين حيث نفذ واليها مضمون الصحيفة فقتله.

ويؤكد مدح بني بكر، وجود تمركز قبلي تدعمه موضوعات في الفخر، ذات خاصية جديدة كثيرة الحدوث في بقية القطع. ويمثل ديوان طرفة، باعتبار طابع المختارات الغالب عليه، التقليد الشعري السائد في سهوب العراق. والجدير بالذكر أننا لم نعثر على أي أثر للتوحيد في شعره".

لقد شكك الدارسون عموماً بقصة موت طرفة ، ولم يحاولوا ربطها بسيرة حياته ، ونحن معهم في أن أحداثها كما بلغتنا غريبة ، وأقرب إلى التلفيق ، لكن يجب أن لا يفوتنا أن طرفة لم يكن شاباً عادياً ، كما أنه عاش ظروفاً غير عادية ، فقد كانت ثقته بنفسه كبيرة ، واستهتاره بالآخرين أكبر نتيجة ردة فعله تجاههم ، إضافة إلى الكبرياء الشديد الذي كان يتمتع به ؛ لأنه كان يرى أنه من سادة القوم ، هذا إن لم نتطرق لأبحاث علم النفس الحديث (فرويد، ١٩٦٦، الصفحات ٧٢-٧٣) التي تؤكد وجود غريزة للموت (الفناء) في داخل كل إنسان ، وأن هذه الغريزة في الأحوال العادية فقط تكون في حالة توازن مع غريزة الحياة (البقاء) ، وفي بعض الحالات النفسية الخاصة تنتصر غريزة الموت على غريزة الحياة ، ويدللون على ذلك بظاهرة الانتحار مثلاً.

وفي جميع الأحوال وصلتنا رواية موت طرفة على النحو الذي نعرفه، ولا سبيل الآن للتأكد منها؛ لأن الاختلاف في الروايات اقتصر على التفاصيل فحسب. لذلك نجد أن الذين شككوا في قصة الكتابين وقفوا عاجزين عن طرح البديل لهذه القصة والله أعلم ...!

الموت عند طرفة:

" لعل في حياة طرفة الشخصية، وفي الوسط الذي عاش فيه والظروف التي تقلب فيها، مشكلات حياته مع أمه وإخوته، وسوء معاملة أعمامه لهم بعد وفاة أبيه، لعل في كل هذا ما كوّن شخصية الشاعر الحساسة القلقة، والذكية في الوقت ذاته.

وإذا أضفنا إلى هذا أنه كان ذا نسب معروف، عرفنا سبب موقفه من الحياة والمجتمع " (الخشروم، ١٩٨٢، صفحة ٢٣٣)، وهذه الحالة الفردية الذكية والمعانية في الوقت نفسه لم تمنعها قلة الخبرة في الحياة واتقاد الشباب من طرق باب الحكمة الذي يعده كثير من الدارسين حكراً على الطاعنين في السن المخضرمين في الحياة، وقد فاتهم أن للحكمة أبواباً سوى طول التجربة؛ منها التأمل والتفكير والاستقراء والاعتبار والتعلم، ولقد شهد لطرفة كل من عرفه بحدّة الذكاء مذ كان طفلاً، وقد أوردنا في هذه الدراسة مواقف عدة تدلل على ذلك.. ورغم قصر عمره كانت حياته حافلةً مليئةً بالتجارب ولا نقتصر هنا على الحديث عن شباب طرفة، بل نشمل كذلك نشأته وطفولته ".. فقد ترعرع إلى جنب والدته يعانيان من ظلم أعمامه وقسوتهم، وقد أورى به ذلك شعوراً بالنقمة وإحساساً بالتخاذل والبؤس..." (الخشروم، ١٩٨٢) ، لكن هذا الشعور لم يفرض على طرفة عزلة عن الناس إنما أوجد في داخله حالة من التفرد ترفض الانصهار في المجتمع المحيط به لكنها لا ترفض التعامل معه؛ فهو يقول:

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

" لا يغيب طرفة عن حلقة القوم، كما لا يغيب عن الحوانيت، ومعنى هذا أن الشاعر يريد أن يدخلنا إلى عالمه المتناقض دفعة واحدة، وفي بيت واحد " [١].

" لقد فكر طرفة في الحياة ونهايتها، فعرف أنها منتهية بالموت، وحاول أن يعرف شيئاً بعده، فلم يستطع، فارتد يائساً حزيناً، وهان عليه كل شيء، لأنه لا يدري ماذا يستطيع أن يصنع غير هذا، ... فهو يحيا لقبيلته والدفاع عنها، ويحيا لنفسه، غير أن حياته وسيلة بالنسبة إلى القبيلة، وغاية في نفسها بالنسبة إليه " (الأشتر، ١٩٩٤،، صفحة ١٢٢).

وهو كذلك لم يكن جاهلاً بأن ولوجه عالم قبيلته بأفكاره الخاصة وطريقته الخاصة سيثير هم ضدّه، ففي حين كان يشرب الخمر بإفراط، كان يعلم أن القوم يستاؤون منه لكنه كان يتقصد ذلك، ولم يكن إفراطه في الشرب عن طيش أو حماقة؛ وقد أشار إلى ذلك بقوله: (مايو، ١٩٩٩)

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

إذا رأى بعض النقاد أن حكمة طرفة تجسدت في نظراته في الحياة من خلال المعلقة فقط فقد ظلموه، فالحكمة تتجلى أحياناً في ثنايا الشعر دون أن يوحي ظاهره بها، ولعل المقارنة من أهم الأشكال التي تجلت فيها محاكمة طرفة العقلية، ومن أوجه تلك المقارنة قوله (في المعلقة): (مايو، ١٩٩٩، صفحة ٦٦)

فما لي أراني وابن عمي مالكاً متى ادن منه ينأ عني ويبعد

ثم قوله في القصيدة ذاتها: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ٥٠)

وإني وإن أوعدته أو وَعَدتَهُ لمُخلِفُ إيعادي ومُنجز موعدي

فهو في هذين البيتين يبدي جفاء مالك له، دون سبب يعرفه، ومع ذلك فطرفة يتمسك به ويمتص غضبه، وإن استاء من مالك يوماً وتوعده فإنها ثورة الغضب التي سرعان ما تزول، لنجد طرفة يبر بوعده ويتناسى وعيده! هنا يتجلى مبدأ احتواء الآخرين الذي يتطلب من الحلم والحكمة الشيء الكثير ولطرفة في شعره حكم ذهبت أمثالاً، منها على سبيل الذكر ما أورده الميداني في مجمعه، قال: "رأى الكوكب ظهراً: أي أظلم عليه يومه حتى أبصر النجم نهاراً، كما قال طرفة:

إن تنوله فقد تمنعه وتريه النجم يجري بالظهر

يضرب عند اشتداد الأمر" (الأشتر م.، ١٩٧٨، الصفحات ٣٠-٣١)

وليس أدل على حكمة طرفة من شهادة خاتم النبيين له؛ حيث أنه " لما سمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

استحسنه، وقال: هذا من كلام النبوة

كان للموت في شعر طرفة جانب وافر ، توزع في محاور افترضناها ، منها ما يتعلق **بحتمية الموت**. ؛ فالموت آتٍ لا محالة ، وقد أشار طرفة إلى هذه الفكرة في أكثر من موضع ، والغريب أن أول ما قاله من الشعر كان يتعلق بهذه الفكرة بالذات ، والدليل ما أورده الميداني في مَجْمَعِهِ ، قال : " خلا لك الجو فبيضي واصفري : أول من قال ذلك طرفة بن العبد الشاعر ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر ، وهو صبي ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيخ له فنصبه للقنابر وبقي عامة يومه فلم يصد شيئاً ثم حمل فخه ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحب فقال: (الميداني، ١٩٦٤)

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

وانقري ما شئت أن تنقري قد رحل الصياد عنك فابشري

ورفع الفخ فماذا تحذري؟ لا بد من صيدك يوماً فاصبري

إذا كان طرفة فطناً لحتمية الموت منذ طفولته وهذا بحد ذاته يستحق الوقوف عليه إذ لا بد له من تفسير، طالما أن الصياد صورة من صور الموت والقنابر كالبشر لا بد من أن تموت.. إن الصيادين كثر كأسباب الموت وإن نجا المرء من أحد هذه الأسباب فإن سبباً آخر سيدركه لا محالة! وقد يعاب علينا الوقوف أمام هذه الفكرة فالتفكير بحتمية الموت أمر لا يُعد من العبقرية، ولا يتعلق بطرفة وحده " فقد اطمأن عقل العربي الجاهلي إلى حتمية الموت وأدرك عبثية الفرار من هذه الحتمية كما آمن بأن الموت قوي يغلب كل من يغالبه فلا تنجي منه التعويذات وقوة السحر " (المرعي، ١٩٨٩، صفحة ٤٥)

ولكن الغرابة هاهنا ليست في الفكرة بحد ذاتها وإنما في أن يطرقها طرفة في أول ما قاله من الشعر، وفي ملازمة هاجس الموت المحتوم لذهنه حتى فارق الحياة، وكأنه كان يشعر بأنه على موعد قريب مع الموت.. إنه الشاعر الشاب الذي " آمن بقرب الموت ، وأن الجميع يتساوون تحت التراب ، وأن الإنسان إذا مات فَقَدَ كل شيء وكل صلة بالعالم... " (الخشروم، ١٩٨٢، صفحة ٢٣٧) إذاً قد يتناول شاعران أو أكثر الفكرة ذاتها ، لكن لكل منهم ظرفه الخاص ورؤيته الخاصة وشاعريته التي يتفرد بها ، وقد كان تناول طرفة لحتمية الموت متميزاً حيث دفعه ذلك الموقف نحو الحياة دفعاً ، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد الرزاق الخشروم بقوله: " ونجد شعراً كثيراً يؤكد على أن الموت آتٍ لا محالة ، ويسلم فيه الشعراء بهذه الحقيقة ، ولكن دون أي تعبير آخر ، وبعضهم الآخر يؤكد على ضرورة أن يعبَ من ملذات الحياة قبل أن يداهمه الموت ، ولقد كان طرفة خير من عبر عن هذا الاتجاه فهو يطالب أن يروي نفسه قبل موته ، ساخراً من قيم مجتمعه ، وذلك لاعتقاده الكامل بأنه إذا مات فقد انقطع كل شيء ، ويتساوى بعد الموت في التراب ، مَنْ ضحى بماله في سبيل لذائذه ومكارمه ومَنْ شح وجمع الأموال وتركها لغيره ، فلا شيء في القبر سوى تراب وصفائح" (الخشروم، ١٩٨٢، صفحة ٢٩٨) ، وكان للدكتور بكري شيخ أمين تعليق على ذلك الموقف أيضاً ، فقال : " وإذا صح كلام المؤرخين أن طرفة مات أو قتل وهو شاب في مقتبل العمر ، فإنا لنرفعه مكاناً علياً بين الشعراء لأن عقله كان يعمل ، ولسانه كان يُعبِّر عما يفكر ، في حين لم نجد سواه من الذين تقدمت بهم السن يفكر كما فكر ، أو على الأقل لم يستطع أن يصل إلى مرحلة التأمل والتفكر في الحياة والموت ، والإنسان والكائنات إلا في مرحلة الشيخوخة أو الهرم " (شيخ أمين، ١٩٧٤، صفحة ٨٣)

قد أدرك طرفة حتمية الموت فأشار إلى ذلك في مواقف عدة؛ منها قوله: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١١٨)

مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ألا سار من يبقى على إثر من يمضي

فالسابقون أنهوا المشوار وانقضت أعمارهم، وهذا المصير لا يقف عند امرئ بعينه إنما هو النهاية المنتظرة التي لا بد منها للجميع، ولذلك فلتأت تلك النهاية التي يسعى الإنسان إليها بقدميه مكرهاً طالما أن السير لا يجر سوى التعب دون أمل بالنجاة! إنه الاعتبار بتجربة السابقين المتجددة، وهو يكرر المعنى ذاته بقوله: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١٣٢)

مضى سلف أهل الحجى منه والتقى ولا خير في دهر تولت غرانقه

فالعقل الراجح لا يفيد في إيجاد مهرب من الموت، بدليل موت الكثير من أهل الحكمة والعقل، لكن الموت يصبح مطلوباً حين يعبس الدهر في وجه الإنسان، فيفقد ما كان له من نعمة ولذة وهنا يتوج طرفة حالة التأمل بالنتيجة الحتمية في كلتا الحالتين، السعادة أو الشقاء، فيقول: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١٣٥)

ولا بد من صوب وشيك واجل فحيث يكون المرء فالموت لاحقه

فالشاعر لم يجد بدأ من التخلي عن لغة التخييل لطرح مفاد الفكرة بصورة تقريرية وكأنه يصل إلى خلاصة الكلام، وهي أن الموت لا بد منه لكنه مرتبط بمشيئة خفية لا يدركها الشاعر تدني الموت من الإنسان أو تؤجله إلى وقت لاحق.

إن المشتقات المتوالية (صوب، وشيك، أجل، لاحقه) مع فاءي العطف اللتين تفيدان التعقيب مع الفعل المضارع يكون الذي جاء هنا تاماً، أضْفَتْ على البيت السابق صفة الحركة القوية، وكأن المرء فريسة تعدو بكل طاقتها وخلفها مفترس يفوقها سرعة وقوة ويسيطر على الموقف، وهي تعلم ذلك، لكنها تتشبث حتى اللحظة الأخيرة بأمل أن يتعثر فيخطئها ويمنحها حياة أطول.. إن هذه الحركة القوية لتي تجعل المتلقي لا يشعر بالتقريرية في البيت السابق.. لكن لغة مختلفة نجدها في بيت آخر للشاعر يقول فيه: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١٤٧)

إذا جاء ما لا بد منه فمرحباً به حين يأتي لا كِذابٌ ولا عِلل

لنلمس لغة هادئة فيها من التسليم الشيء الكثير دون أي شكل من أشكال الصراع وكأنها اللحظة التي تقع فيها الفريسة بيد مفترسها فتغمض عينيها وتسلم روحها بهدوء.

لقد تناول الشاعر حتمية الموت على شكل أبيات مفردة في الحكمة، لكنه لم يقتصر على هذا الشكل، بل استفاد منها على مستوى التنظير أيضاً في الرد على امرأة تلومه على طريقته في الحياة لا يفصح عن شخصيتها في أبياته التالية: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١٦٩)

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم

إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العُدْمُ

ولئن بنيتُ إلى المشقر في ضب تقصر دونه العصم

لتنقين على المنية إن الله ليس لِحُكمه حُكْمُ

فهي تلومه على تفريطه بماله دون أن يحتفظ منه بما يكفيه الفقر في غده، فخلود المرء - برأيها - في ثرائه، لكن طرفة يرفض كلمة (الخلود) لأنها لا تصح لأي إنسان ولا تعدو أن تكون وهماً، لذلك لا داعي للاحتفاظ بمال قد يتركه في أية لحظة ويفارق الحياة! إن الغيب هو المصطلح المراد بقوله (بغد ولا ما بعده..)، وربما بشكك البيت الأخير بمعناه الإسلامي في أن ننسبه لطرفة، لكن السياق ينطبق تماماً على طريقته في التفكير.

ولم تكن الحتمية الباب الوحيد الذي ذكر فيه طرفة الموت في شعر الحكمة خاصته، بل تعداه إلى نظرات تأملية في محاولة لتكوين فلسفة للموت، وما يضفيه على الإنسان ويمليه عليه، وما ينجم عنه من تحديد أفعال البشر على مستويين متباينين؛ أولهما ما يجب أن تكون عليه هذه الأفعال، وثانيهما ما هي عليه فعلاً يقول: (مايو، ١٩٩٩، الصفحات ٢٧-٢٨-٢٩)

صباح الفتى ينعى إليه شبابه وما زال ينعاه إليه مساؤه

ولن يهلك الإنسان إلا إذا أتى من الأمر ما لم يرضه نصحاؤه

إذا قل مال المرء قل بهاؤه وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وإن مات لم يُفقد ولياً ذهابه وإن عاش لم يَسرُرْ صديقاً لقاؤه

إن الصباح بالنسبة إلى طرفة مختلف تماماً؛ فهو لا يحمل إليه الإشراق الذي يحمله للآخرين، وإنما يستوي عنده المساء - رمز الظلمة والوحشة - طالما أن الزمن معه لا يتوقف، بل يمعن في إنقاص عمر الإنسان تدريجياً، على أن العمر الحقيقي لدى شاعرنا هو الشباب الذي إذا انقضى انتهى معه الإنسان طالما أنه لا لذة له من بعده ولا نساء ولا معارك.. إنها الفتوة في حالة غير عادية، الفتوة التي ترى أن نهايتها في نقصانها ومع ذلك فتقدير الناس قاصر على ذوي الغنى والجاه، لذا نجد شاعرنا لا يقيم وزناً للنصحاء، لأن وجوده وعدمه سواء لديهم.

إن لغة هذه الأبيات تقترب من طريقة زهير في شعر الحكمة الذي يعمد إلى الجمل الشرطية التي تفيد المقارنة بين نموذجين، أو شكلين أو حالتين.. إلخ، خاصة في البيت الأخير، لكننا نجد في نظراته في الحياة والموت ما يميزه بوضوح، ولعل أهم الأمثلة التي يمكن أن نوردها أبياته التالية في المعلقة: (مايو، ١٩٩٩)

أرى قبر نحامٍ بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

أرى الموت يعتامُ الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غدِ

إن وصف القبور في المعلقة تتمة لما نذهب إليه من أن فكرة الموت كانت تلح على طرفة بحد ذاتها، فهو لا يقف أمام القبر باكياً، بل متأملاً؛ فجميع القبور متشابهة من الخارج رغم تباين الأموات فيها، لكننا عندما نقف أمام كومتين متشابهتين من التراب وفوقهما الحجارة التي نقش عليها اسم الميت في كل منهما، نقول رأينا في صاحب كل قبر ولا ننسى الكريم من البخيل! إن طرفة يفكر فيما بعد الموت، ونحن هاهنا بصدد فلسفة حقيقية لحياة الإنسان وموته تحمل في طياتها الكثير من العقلانية والرأي والحكمة، فالموت هو المحطة الأخيرة والأكيدة لرحلة الحياة وقد يخيل إلى المرء أن سفره مؤجل لا معجل، وأنه غير مقصود بنذر الموت التي تحيط به من كل جانب، وأن الموت الذي أدرك غيره اليوم قد عفا عنه، وأن في الزمن فسحة، وهو في حقيقة الأمر غافل عن الحقيقة، لأن البعيد قد يقرب، ولأن الحياة طوقت الإنسان بحبل أوله في عنقه، وآخره في يد الموت. والموت قادر على شد الحبل، وخنق صاحبه في كل لحظة، قال طرفة:

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً، ما أقرب اليوم من غد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

فطرفة لم ينكر أن الموت يساوي بين الناس جميعاً، وأن أزهد الناس وأبخلهم قد يدفن في قبر يشبه قبر أكثرهم شرفاً وترفاً، " وأن الحياة مع مرور الزمن تأكل عمر الإنسان حتى تفنيه، وإن الموت الذي أضجر من الحياة شيخا كزهير هو الذي فجر غرام الحياة في قلب شاب كطرفة، فالشاعران يلتقيان ثم يفترقان: يلتقيان على الإيمان بأن الموت حق، ويفترقان

بعد ذلك. إذ يبقى زهير غارقاً في السأم، ويذهب طرفة إلى الحانوت ليغرق نفسه في الخمر، وليحول ماله إلى لذائذ ومباهج قبل أن ينزع الموت منه ماله، أو ينتزعه من المال " (طليمات و الأشقر ، ١٩٩٢).

وثنائية الحياة والموت تتجلى بعد ذلك صراحة في الأبيات السابقة؛ فالموت يسخر من ذوي البخل، لأنه يأخذ من عامة الكرام، ولكنه يتقصى البخيل الحريص ليخطفه بسرعة أكبر، وليعلم الناس أن البخل يدني الموت ولا يقصيه.. ونحن نسميها هنا فلسفة في الموت رغم أن للدكتور بكري شيخ أمين رأيا آخر في هذا الصدد فهو يقول: " من الغبن، وتطفيف الموازين، أن نعد أبيات طرفة فلسفة فهي من الطراوة والليونة بقدر لا يمكننا معه أن نصفها بهذه الصفة " (شيخ أمين، ١٩٧٤)، ولكنني أقول مطمئناً:

إن في أبياته نظرات ثاقبة في الحياة، وتأملات صائبة في الأيام إلى حد ما، ومن وجهة نظره الجاهلي البسيط. وهي لا تقوم على أساس ثابت، ومفهوم معين، ونظرة واحدة إلى الإنسان والحياة. وكل ما وصل إليه طرفة هو أن الحياة زائلة، الموت محتم، وعلى الإنسان ألا يبخل، أو يجبن، أو يقصر في لذة، أو حرب ومثل هذه الآراء أقرب إلى التأمل منها إلى الفلسفة ". لكننا نتساءل هنا إن كان الدكتور بكري قد قلل من شأن تلك الأبيات؛ فالتأمل الذي أشار إليه هو عماد الفلسفة الأول لأنها لا تقوم أصلاً إلا على أساس من التأمل، والفلسفة التي ينشدها الدكتور بكري، كانت محالة حتى بعد طرفة بعصور، ولا نكاد نلمح شيئاً منها إلا في القليل من شعر المتأخرين أمثال ابن سينا مع ما وصلت إليه الحضارة من ازدهار في عصره، ونعني قصيدته التي مطلعها:

هبطت إليك من المجل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ولقد عيب عليه أنه كان مقلاً في شعره من لفتات كهذه، فما بالنا ونحن نتحدث عن طرفة في العصر الجاهلي، وعنه وهو شاب، نطلب منه ذلك؟! إن مجرد التأمل في شعر طرفة يعد إنجازاً لم يبلغه أحد من معاصريه، ويكفينا منه أنه كان يفكر بالمنحى الصحيح الذي تقود إليه الفطرة، بل كان التفكير يملك وقت طرفة كله حتى شغله عما كان يحفل به غيره من الشعراء - وخاصة الشباب منهم من التعلق بحبائل الهوى أو الشغف بالنساء، وهذا ما جعل النقاد ينتقدونه، " قال الأصمعي: (المرزباني، ١٩٩٢، الصفحات ٨٩-٩٠) لم يكن طرفة يحسن أن يتعشق؛ قال في قصيدته:

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر

أرق العين خيال لم يقر طاف والركب بصحراء يُسر

أي زارني في مكان لا يزار فيه، ثم قال الأصمعي: يقول هذا القول إنه لم ينم ولم يهجع من حبها ثم يقول:

وإذا تلسُنني السنها إنني لست بموهون عُمر

لا كبير دالف من هرم أرهب الليل ولا كل الظفر "

ليس هذا فقط، بل إن طرفة يعتبر الموت حلاً للحب الذي لا شفاء له ولا يمكن أن يفضي إلى الوصول لمن يحبه المرء، فالموت يعود دواء ناجعاً وحيداً: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ١٥٦)

لعمري، لموت لا عقوبة بعده لذي البث أشفى من هوى لا يزايله

إذاً فالموت الذي يهرب الإنسان منه يكون حاجة ملحة في بعض الأحيان، ليخلصه من عذابه المرير كانت هذه نتيجة ما توصل إليه طرفة وهو يفكر بأن الحياة إن لم تسر بشكلها الصحيح والمنطقي فالموت أفضل منها! لقد تميز شعر طرفة في الموت وهذا ما لفت انتباه النقاد الأوائل ومنهم الجاحظ الذي يطالعنا برأي هام في كتابه الشهير (البيان والتبيين) (الجاحظ، ١٩٦٨، صفحة ٣٤٦/١): " قال أبو عثمان: وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث وذلك أنا إن لمسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية"

بقي أن نشير في هذا الباب إلى أن إكثار طرفة من الحوم حول فكرة الموت لا يدل كما قد يوحي لبعض الدارسين، على أنه لم يكن يخشاه، بل إن التكرار المذكور بحد ذاته يُعد دليلاً على الخوف الشديد من الموت الذي بات هاجساً لا يفارق الشاعر، ودفعه بالتالي إلى الإسراع بالأخذ من ملذات الحياة قبل فوات الأوان، وقد أشار الدكتور بكري شيخ أمين إلى هذه الفكرة في دراسته لمعلقة طرفة، فقال (شيخ أمين، ١٩٧٤، الصفحات ٨٠-٨١):

" وهو في الوقت نفسه خائف كل الخوف من الموت، وخوفه هذا دفعه إلى الحديث عنه في أبيات كثيرة متوالية، ومثل هذا التكرار للفكرة الواحدة يدل على مدى أثرها في النفس، وشدة اهتمام الشاعر بها. " ولعل الخوض في علم النفس والحديث عن التكرار عند الأسوياء، وعُصاب التكرار عند المرضى النفسيين، يكون أجدى في غير هذا المقام لما يمليه من الإطالة والخروج على موضوع الدراسة.

الجدلية في الموت:

لقد تأمل طرفة في الموت فرآه كالوحش المفترس الذي لا تنقصه القوة أو السرعة أو الفراسة، بل إنه يحدد بمطلق الحرية موعد صيد كل فريسة ولذلك تناول طرفة صوراً من الطبيعة تفضي إلى هذا التصور؛ منها قوله: (مايو، ١٩٩٩، صفحة ٣٥)

كأن قلوب الطير في قعر عشها نوى القسب ملقى عند بعض المآدب

في هذا البيت نجد وصفاً لعش العُقاب أو أحد الطيور الجارحة، فقلوب الطيور التي افترستها بقيت في قعر العش، وكأنها نوى التمر الذي أكله الضيوف في مأدبة عامرة هذا البيت يلتقي بفكرته مع قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها، العناب والحشف البالي

إن المقارنة بين بيتي الشاعرين تفيدنا كثيراً في استقصاء فكرة الموت في شعر طرفة، لأن كلاً من الشاعرين وصف المشهد نفسه من زاويته الخاصة، كما ينظر رسامان إلى مشهد، ثم يرسمه كل منهما بريشته الخاصة، وفي حالة كهذه لا يكون هاماً جداً أن نعرف من منهما سبق الآخر زمنياً لأننا لا نستطيع أن نتهم المتأخر بالتقليد. وقد حدث شيء من هذا القبيل في عصر النهضة الأوربية، حيث روي أن رسامين إيطاليين كانا يتنافسان في إبداع اللوحات إلى أن قام أحدهما برسم تخيلي رائع لمشهد العشاء الأخير للمسيح، عليه السلام، في المغارة ...! لقد تأمل الرسام الآخر تلك اللوحة بإعجاب وأثنى عليها، ثم دخل بيته ولم يبرحه مدة طويلة، فظن الناس أنه اعتزل الرسم، لكنه خرج إليهم ثانية بلوحة للعشاء الأخير أيضاً!

كان المذهل في الأمر أنه تخيل نفسه في عمق المغارة التي رسمها صاحبه ورسمها من الجهة المقابلة بنجاح هائل دل على خياله الوقاد الذي نال استحسان الجميع بالعودة إلى بيتي شاعرينا ندرك شيئا من هذا القبيل، حيث كان امرؤ القيس ينشد مُلْكاً سليباً وهو مفعم بالأمل باسترداده، لذلك نجد أن قلوب الطير منها الرطب ومنها اليابس، مما يحمل دلالة واضحة على معركة قريبة، مع وجود عدو قوي لا يعرف الهوادة، هنا نجد بقية من الرطوبة في عش العقاب.. أما عند طرفة فالأمر مختلف لأن معنى القسب هو (التمر اليابس) ... إن العقاب هنا رمز للموت الذي لا يدع وراءه أية دلالة على الحياة أو احتمال للبقاء، وإن كانت قلوب الطير عند امرئ القيس كالتمر بنوعيه، والتمر فيه قشر يؤكل ونواة تلقى، فهي عند طرفة نوى فقط، لا شيء فيها صالح للأكل، وفي بيت طرفة ما يدل على الكثرة حيث النوى ملقاة عند مأدبة، ويمكننا تصور عدد الحاضرين ومقدار ما يمكن أن يستهلكوه من التمر

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا تدع العقبان قلوب الطير في أعشاشها؟! وكيف وصل كل من الشاعرين إلى وكر العقاب ونحن نعلم أن هذه الطيور تفرخ في المرتفعات العالية والمنحدرات الخطرة الشاهقة؟!

إن الرد إلى الجانب التخيلي في هذه الصورة هو الأقرب إلى الإقناع والأكثر منطقية.. وإن كان الموت يهجم بقوة على المخلوقات، فقد يكون عاملاً من عوامل الطبيعة كما في المشهد الذي يرسمه طرفة في قوله (مايو، ١٩٩٩، صفحة ٤٥):

وركوب تعزف الجن به قبل هذا الجيل من عهد أبد

وضباب سفر الماء بها غرقت أولاجها غير السدد

فهي موتى لعب الماء بها في غثاء ساقه السيل عدد

إن هذه الأبيات مطلع لقصيدة قالها طرفة في مديح بني المنذر، وهي أبيات تنم عن نظرة الشاعر الفاحصة، يبذؤها بوصف الطريق الموحشة، الذي يمكننا اعتباره شبيها بطريق الحياة بالنسبة لشاعر كطرفة، إنه طريق تصفر فيه الرياح كأنها عزيف الجن منذ الأزل، ولا يقف في وصف هول المشهد عند هذا الحد، بل يضيف إليه العاصفة ويليها السيل، الذي لا عهد لعرب شبه الجزيرة العربية بمثله، وهنا يتجلى تقاطع آخر مع شعر امرئ القيس في قصيدته المعلقة حيث يقول:

وألقى بصحراء الغبيط بَعاعَهُ نزول اليماني ذي العياب المحمل

كان مكاكي الجواء غدَيَّةٌ صُبحْنَ سُلافاً من رحيق مفلفل

كان السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

لقد استقرت السيول في صحراء الغبيط، وانتشرت في كل اتجاه، أما طيور السماء، فقد طربت، وانتشت في ذلك الصباح فراحت تصفر، أو تغني أو تغرد بأصوات مرتفعة، كأنها شربت من خمرة لاذعة.

وأما سباع الأرض فقد كانت في ذلك المساء غرقى وكأن قوائمها مرفوعة إلى أعلى، كأنها نباتات اجتثت من جذورها، ورميت في كل مكان السيل

في كلتا القصيدتين أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، لكنه في كلتيهما أيضاً يعبر عن الحالة النفسية القلقة، على أننا نجد أن بعض المخلوقات في قصيدة امرئ القيس قد نجا (الطيور) وبعضها الآخر مات (السباع) لتنقلب المعادلة فمن يتوقع أن يموت السبع الضاري ويبقى الطير الضعيف؟!

إنها الأقدار الساخرة نفسها التي سلبته ملك أبيه.. أما طرفة فلم يكن ملكاً أو أميراً، وكان سيله أكثر منطقية رغم أنه ينصب أيضاً في لعبة الأقدار؛ فالسيل عنده رمز للموت الذي يقبل فيجرف من في طريقه من الضباب، ولكن أية ضباب؟ إنها الضباب التي رضيت من نفسها أن تلزم أولاجها (أوكارها أو جحورها) ظناً منها أنها ستكون في مأمن من الموت، فماتت، بينما نجت الضباب المغامرة التي صعدت إلى سطح الأرض.

إذاً: الهرب من الموت لا يجدي نفعاً بالنسبة لطرفة، بل قد يدني الموت أكثر

الخاتمة

في الختام يمكنني الوقوف على أهم الأفكار التي تبلور على أساسها العمل كله، فبعد المقدمة حول منهج البحث قمت باستعراضٍ سريعٍ لفكرة الموت في العصر الجاهلي حتى أضع المتلقي في الجو الفكري لعصر طرفة؛ على أساس أن كل شاعر ابن بيئته التي نشأ فيها، شاء ذلك أم أبى، ثم عمدت إلى تضييق الحلقة، بدخول عالم طرفة الخاص، فترجمت له، لا سعيا وراء التاريخ ، بل لبيان أهم المنعطفات التي مر بها الشاعر عبر حياته القصيرة الحافلة ، مما يجعل المتلقي ضمن دائرة الاستقراء والربط والاستنتاج في أبواب البحث التالية . ومن ثم كان انتقالي إلى النصوص الشعرية التي قالها طرفة فيما يتعلق بالموت وبالطبع لم يكن استعراضها بلا تبويب ممكناً، فقسمتها إلى أبواب حسب أفكارها وبدأت بشعر الحكمة فربطت ظهور الحكمة في شعر طرفة باكراً بنشأته، وموقفه من القبيلة، مدللاً على ذلك بأمثلة من طفولته وشبابه، وببعض حكمه الشعرية التي ذهبت أمثالاً، وبما استحسنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شعره، ثم عمدت إلى تقسيم افتراضي لشعر الحكمة المرتبط بالموت، فتحدثت عن حتمية الموت، ثم انتقلت إلى فلسفة الموت، مظهراً أن الشاعر كان يخاف الموت كثيراً، وأنه تميز بربطه للموت بقوة ميتافزيقية استطاع الشعور بها ولم يستطع إدراكها.

وفي الباب التالي تناولت جدلية الموت من حيث (الانقضاض والهرب) لأنني رأيت ان طرفة كان يشبه الموت بالوحش المفترس الذي لا يضعف ولا يفقد قدرته على الصيد، أما الإنسان فهو الفريسة التي يقع عليها اختيار ذلك المفترس وعندئذ لا يكون لديها أدنى أمل بالنجاة منه ، وقد اكتسب الموت في شعر طرفة صفة الانقضاض إما بشكل طير جارح ، أو بشكل سيل جارف ، لنجد مرة أخرى أن طرفة كان يفكر بالموت كحالة جماعية إنسانية ، وقمت في كلتا الصورتين بالمقارنة بين أبيات طرفة وأبيات امرئ القيس لأقف على ما امتاز به طرفة في تفكيره بالموت.

وعلى هذا أكون قد أتيت - ما أمكنني - على ذكر ما يتعلق بالموت في شعر طرفة ولا أحسب هذه الدراسة إلا مقدمة لأعمال أخرى في المستقبل تتناول شعرنا الجاهلي بطريقة مختلفة جديدة تليق بذلك الأدب الناصع، الذي ناله الكثير من الظلم حتى الآن نتيجة اعتبار الشاعر الجاهلي بدوياً ساذجاً لا يدرك من الحياة أبعد من التمر واللبن وخيمته وراحلته!! فمعظم الشعر الجاهلي لما يُدرس حتى الآن ، وهو بانتظار كل باحث مخلص، أو دارس مهتم، لينقب عن كنوزه الحقيقية ويخرجها تحفاً للناظرين علماً أن كثيراً من الكتب التي تناولت الشعر الجاهلي لم تتعد حدود شرح المفردات الصعبة لا أكثر

المراجع

الأشتر، محمد صبري (1994). العصر الجاهلي الادب النصوص- المعلقات. مطبوعات جامعة

الأشتر، محمد صبري. نصوص من النقد العربي القديم. دار القلم العربي.

بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي (ط5). دار المعارف.

بلاشير، ريجيس (1984). تاريخ الأدب العربي. تر: الكيلاني، إبراهيم (ط2). دار الفكر.

الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تح: عطوي، فوزي. دار الصعب.

الجمحي، ابن سلام (1952). طبقات فحول الشعراء، تح: شاكر، محمد محمود (ط2). دار المدني.

حلب.

الخشروم، عبد الرزاق (1982). الغربة في الشعر الجاهلي. اتحاد الكتاب العرب.

السيوطي، جلال الدين (1998). المزهر في علو اللغة وأنواعها. شرح وتعليق: جاد المولى، محمد

أحمد، البجاوي، علي محمد، إبراهيم، محمد أبو الفضل. دار إحياء الكتب العربية.

شيخ أمين، بكري (1974). المعلقات السبع. دار الإنسان الجديد.

ضيف، شوقي (1960). تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي (ط7) . دار المعارف.

طليمات، غازي، أشقر، عرفان (1992) . الادب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه. دار الإرشاد.

ظلام، سعد عبد المقصود (1984). من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي (ط2). دار المدار.

عبد الصبور، صلاح (1973) . قراءة جديدة لشعرنا القديم. دار النجاح.

العسكري، أبو هلال (1964). جمهرة الأمثال. تح: أبو الفضل، محمد، قطامش، عبد الحميد.

فرويد، سيجموند. ما فوق مبدأ اللذة. تر: إسحق، رمزي (ط2). دار المعارف.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. المؤسسة العامة للتأليف

كليب، سعد الدين (2011) . النقد العربي الحديث مناهجه وقضاياه. منشورات جامعة حلب.

مايو، عبد القادر محمد (1999). ديوان طرفة بن العبد. دار القلم العربي.

المرزباني، محمد بن عمران (1992). الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. تق: الزعيم، أحلام. منشورات وزارة الثقافة دمشق.

المرعي، فؤاد (1989).الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام. دار الأبجدية للنشر.

مصور عن طبعة دار الكتب. مؤسسة جمال للطباعة والنشر.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، تح: عبد الحميد، محمد محيي الدين.

والترجمة والطباعة والنشر.

الباحث الدكتور: محمد باسل طربوش